أفغانستان.. المرحلة القادمة

يـوم الأربعاء ٩/ ٧/ ١٤٠٩هـ الموافق ١٥/ ٢/ ١٩٨٩م شهـد خروج آخـر عسكـري روسي من الأراضي الأفغـانيـة. أحد الألـويـة الـذي قال وهـو يعبـر الحدود: إنه لن ينظـر إلى الخلف. وصحيفة البرافدا الـروسية تعلن في اليوم ذاته ولأول مـرة أن تورط الروس في أفغانستـان كان «غلطة» تمخض عنهـا أكثر من خمسين ألفًا من البشـر الروسي ضحـايا لهذه الحـرب التي دامت أكثر من تسع سنين وأكثر من مليـون من البشر الأفغان ضحـايا وأكثر من أربعـة ملايين من المشردين أو المهاجرين.

وخروج الـروس قد لا يعني نهايـة الحرب، ولا يعني نهـاية الجهاد فـلا تزال أفغانستان تحكم على الطريقة الروسية رغم الحصار المستمر على العاصمة. قـد يقـال، إن الجهـاد قـد علِّق أو أوقف، ولكن الـوقف أو التعليق إنمـا هـو للجهاد الأصغـر ليبدأ الجهاد في إقـامة دولـة تحكم بكتاب الله وسنة رسـوله ـ عليه الصلاة والسلام.

وخروج الـروس أيضا لا يعني تخليهم عن القضيـة عمومًا وكأنهم يقـولون، لقد فشلنـا في تحويل الشعب الأفغانـي إلى الشيوعية وهـا نحن نغادر معلنين فشلنا، فلا بد أنهم قد تركوا أثرا أو آثاراً تعين على تحقيق شيء من الأهداف إن لم تتحقق كل الأهـداف. ولعل من الأهـداف ألا يقـوم حكم إسـلامي في أفغانستان فيعمد إلى تهديد السيادة الروسية بالجمهوريات الإسلامية الخاضعة تحت الحكم الـروسي، ويعمد إلى تمهيـد الطـريق إلى القدس الشـريف من خلال عديد من الوسائل ومنهـا المحاولات القائمة الآن داخل الأرض المحتلة وخارجها.

ويـدرك الروس أن انتصـار الأفغان ليس انتصـارًا لـلأفغان فحسب، ولكنـه انتصار للمسلمين الذين ناصروا الجهـاد في أفغانستان وفي كل مكان. فإذا تم

النصر للأفغـان فإنه سيكون نموذجًـا قد يحتذى في محاولات جهـادية تهدف إلى التخلص من السيادة الأجنبية عليها . ولـذا فإنه من المهم للروس ألا يكون هنـاك انتصار للجهـاد في أفغـانستـان، بمعنى ألا يكون لأطـراف الجهـاد في أفغانستان أثـر في المرحلة القادمة من حكم البلاد، وليس بـالضرورة أن يكون للشيوعية هذا الأثـر، فالبديل مقبول لدى الروس مـا دام سوف يحد من انتصار الجهاد .

وعليه فلا بد من إيجاد البديل من ناحية، ومن ناحية أخرى لا بد من إيجاد مشكلات في صفوف المجاهدين تشغلهـم لفترة غير محدودة، وقد تصل إلى أن تقوم بينهم قائمـة يسعى من خلالها إلى تقويض ما رسمـوه خلال السنوات التسع التي مرَّت .

وخـروج الروس من أفغـانستـان ـ مثل خـروج الأمـريكيين من فيتنـام ـ تـرك وسيترك وراءه عُقدًا يصعب معهـا الوصول إلى الهدف، ما قَبِل الأفغـانيون هذه العقـد، وجعلوهـا نقطة ارتكـاز للخـلاف بينهم، وعجزوا عن إدراك أنهم قـد استهدفوا من خلالها . ويهم الروس وغير الروس أن تتطور هذه العقد إلى حرب أهليـة تأكل مـا بقي من الـرطب فيثبت للبعيـدين أن هـذه الأزمة بحـاجـة إلى الوصاية عليها ما دامت غير قادرة على الوصاية على نفسها .

والكلمـة السحريـة في هـذا المجال هـي «الحكمة» فإن مـارسهـا الرجـال الأفغـان وجعلوهـا منطلقًا في محـادثـاتهم ونقاشهم فسيعبـرون مرحلـة يتمنى الكثيرون ألا يعبروها . وإلا فسيستجيبون لما يحاك ضدهم من قريب أو بعيد . وقد لا يكون الأمـر بهذه الصورة التي وضعتها هذه الكلمات، وقـد يكون المرء بسبب من انتمائه وحماسه لا يريـد أن يسمع أو يرسخ مثل هذا المفهوم، ومع هذا فلا بد من التركيز والتذكير إلـى أن هناك قويً يهمها عدم قيام هذا الكيان، ولن تتـردد في أن تستغل أيـة وسيلة تعينهـا على ألا يقـوم مثل هذا الكيـان في

أفغانستان وفي غير أفغانستان. وهذا كلام يتردد كثيرًا ويحسن التذكير به والتأكيد عليه. وبعض الذين لم يقتنعوا به بعد يواجهون حوادث خاصة جدًا تجعلهم حقًا يؤمنون به ويتبنونه بعد أن كانوا يلتمسون الأدلة والبراهين عليه.

والمرحلة القادمة في أفغانستان أصعب بكثير من المرحلة التي مضت، ومن خلالها، ربما يرسم التصور القادم للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذا الشعب القوي من خلال الإطار الإسلامي أو من خلال أطر أخرى، كالشيوعية أو غيرها. وعلينا ألا نغفل ونحن نناقش مثل هذه الجوانب أن إرادة الله تعالى هي التي تحكم مصير هذه الأمة وغيرها من الأمم، ولكنها الأسباب المطالب بها بنو البشر في سبيل تحقيق مناخ حياتي أفضل لهم ما داموا يعمرون هذه الأرض. وأي نقاش يعزل قدرة الله تعالى وإرادته ويترك الأمر في يد البشر وفي حدود إمكانيات البشر فهو نقاش تنقصه الموضوعية، ويعتمد على التحليل المادي المستقى من تفسيرات لحوادث وحالات مضت وكان لها مصير لم يكن موفقًا عندما استطاعت كمرحلة أولى أن تتخلص من الاستعمار الفعلي، لكنها استمرت في مشكلات خلفها الاستعمار الفعلي، وهذا هو المتوقع من الروس، ولكنها ـ مرة أخرى ـ الحكمة التي ستحدد الموقف مما خلفه الروس في أفغانستان، أعان الله الأفغان في تخطي هذه المرحلة، وكان الله في عون الجميع.